

كريمًا ومن لا يقتنها بني حيوانًا هيبًا مما يكن شعار طريقتهم وأبًا كان شعار حقيقتهم  
 وخلاصة القول أن الأمور التي يشترك فيها ارتقاء الأحياء وتقدم العمران ثلاثة . الأول  
 تقدم من صور قبيلة مشتركة غير معينة الحدود إلى صور كثيرة معينةها . الثاني استعداد مستمر  
 في الهيء وجسم الاجتماع للحيث المرئي . الثالث تكامل متواصل في المرئي بتقدمه من مبدأ  
 التفرق والانفراد إلى الانضمام والاتحاد بين أجزاء المركب حتى يبلغ بناءً واحدًا متلاحم الأجزاء  
 متري قندلنت

### وصية فؤاد باشا

ازدان تاريخ الدولة العثمانية في القرن الماضي بذكر أربعة رجال عظام كان كل منهم  
 نبراس الفضل ومصباح الهدى يؤتمُّ به ويقتهدى عند تفاقم الخطوب واشتداد الأخطار "كأنه  
 علم في رأسه نار" وهم رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا . كانوا دعاة الإصلاح  
 وحماة الدولة وسياس السنطة وأركان عزمها ومجدها . وقفروا حياتهم على خدمة الدولة والأمة  
 والوطن . وكانوا خير مثال يقتهدى به في الدفاع المجيد والسعي الحميد والجهاد الحسن  
 أما احدم فؤاد باشا فقد قضى سنين طويلة في نصبي الصدارة ونظارة الخارجية على  
 التعاقب واليد بسب الفضل في صدور الأمر المسمى "خط همايوني" سنة ١٨٥٦ القاضي  
 بوجوب مساواة رعايا الدولة العلية على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم في الحقوق والامتيازات .  
 وله الرصية المشهورة التي رفعها قبل موته يوم واحد إلى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٩  
 وقد اطلعنا على ترجمة لها في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فمر بناها في ما يلي لیسع  
 منها القراء صوتًا صارخًا من القبر یرن في المسامع والآذان . ويسوق إلى صاحبه الرحمة  
 والرضوان من كل شفة ولسان

قال المرحوم فؤاد باشا : — "مولاي . لم يبق لي في هذه الحياة سوى بضعة ايام وربما  
 بضع ساعات فارتدت ان افقي هذه الدقائق الاخيرة في انقام فرض مقدس واعرض على  
 جلالكم انكارني الاخيرة المنهمة غمًا واسفًا على سوء المدير الذي انتهت اليه الدولة بعد التناهي  
 في سياسة الخرق والبطيش . وعند ما تمنع كفاي مسامع جلالكم اكون قد فارقت هذا العالم  
 فتصنمون الي من غير ان يداخلكم ارتباب في حسن قصدي لان الصوت الذي يتكلم من القبر  
 يتكلم بصدق واخلاص

ان الله قد استودعكم عملاً فيهِ من الخطر بقدر ما فيه من الجِد والشرف فلكي تقوموا به حق القيام ينبغي ان تدركوا هذه الحقيقة المؤلمة وهي ان السلطنة العثمانية في خطر . فان التقدم السريع الذي احرزته جيراننا والغلطات العظيمة التي ارتكبتها اسلافنا اوصلتنا اليوم الى موقف حرج الى الغاية فيلزم جلالكم والحالة هذه ان تحاموا العتيق وتنهجوا بالدولة منهجاً جديداً تأمن به المعاشر والمزالتى وتنجو من المخاطر والبوائق

يحاول بعض الجهاد ان يقنعوا جلالكم بان وسائطنا الحاضرة تكفيها لاسترداد مجدها الغابر وعزنا الدابر فيالله من خطاء فاضح وغرور فادح ا فاد كان جيراننا باقين في الوقت الحاضر على ما كانوا عليه في عهد آبائنا لما تعذر على جلالكم ان يتابعوا شأوا اجدادكم وتحضروا ملك اوربا لسلطانكم ولكن جيراننا تقدموا كثيراً عما كانوا عليه منذ قرنين . وقد سبقونا براحل وتركونا وراءهم ولم يكن تقدمنا اليسير في جنب تقدمهم الكثير شيئاً مذكوراً

لا أنكر ان الدولة ارقى في عهد جلالكم كثيراً منها في عهد اسلافكم لكن هذا التقدم النسبي اقل من ان بني مجاجات الزمن الحاضر . قد تكونون يا مولاي من حيث القوة والعظمة كاسلافكم وربما استطعت ان تفوقهم في ذلك لكن هذا لا يكفيكم في طلب المحافظة على مركزكم في اوربا بل يجب ان تكونوا عند الحاجة قادرين على مضاهاة جيرانكم والاستغناء بهم . وبعبارة اخرى ينبغي ان تكون سلطنتكم كالكثرا في الفنى وفرنسا في المعرفة وروسيا في الجيش والأفني في خطر القوط العاجل والحرب القرب

وليست مسألتنا الآن محصورة في الحصول على التقدم السريع بل في جعل تقدمنا مساوياً لتقدم الامم الاوربية . ولكم يا مولاي في سلطنتكم جميع الاسباب والوسائط التي تمكنكم من جعل الدولة في مقدمة دول اوربا كلها ولكن الحصول على هذه النتيجة يقضي بتغيير كل قوانيننا السياسية والمدنية . لان كثيراً منها كان مفيداً جداً في الماضي واصبح مضرّاً في الوقت الحاضر ولما كان الانسان قادراً على التقدم الى الكمال وجبت عليه مداومة السعي في تحسين شؤونه وترقية احواله . وهذه السنة الطبيعية تطابق لحسن الحظ كنه ديانتنا الاسلامية فالاسلام يتضمن كل التعاليم الصادقة التي من اسمى مقاصدها تقدم العالم وارتفاع مدار الانسانية . واما الذين يدعون ان ديننا يعارض تقدم دولتنا فهم ليسوا مسلمين صادقين . ولكل دين قواعد وعقائد تحول دون تثقيف العقول واثارة الازهان ما عدا الاسلام فانه مطلقاً من هذه القيود ونمّا يفرضه على تابعيه ان يجاروا العالم في التقدم وابدلوا جهدهم في ترقية القوى العقلية ويطلبوا العلم والمعرفة ليس في بلاد العرب وبين المسلمين فقط بل في البلدان الاجنبية

حتى في الصين وفي اقاصي الارض ايضا

لا يتوهم احد ان العلم الاسلامي يختلف عن علوم بقية الامم فالعلم واحد في كل مكان .  
 وشيئة التي تنير العالم العقلي هي واحدة . والاسلام هو حجب اعتقادنا بجلي كل حقيقة ومظهر  
 كل علم . فكل اكتشاف مفيد وتقدم جديد في كل مكان وبين امة امه كانت انما هو  
 للمسلمين . وبناء عليه لا شيء يجوز دون اقتباسنا ما جد عند الاوربيين من القواعد والقوانين .  
 ولقد تضمنت من ديانتنا تفضلاً قدر في عي فهم كنهها وادراك حقائقها ولست يجادل اسمية  
 الفرض الذي ارمي اليه وابني كلامي عليه . وما كانت نفسي لتسول لي ان اخون سلطاني  
 ووطني ومذهبي في الدقيقة الاخيرة من حياتي عند استعدادي لمفارقة العالم والوقوف في حضرة  
 الديان العادل

فجلاء الثقة والافتناع اقول انه ليس بين جميع القوانين الجديدة التي تعرضها اوربا علينا  
 قانون واحد يناني روح ديانتنا على الاطلاق . وبكل إخلاص اصرح بان خلاص الاسلام  
 يقتضي المبادرة الي قبول هذه القوانين التي لا مندوحة عنها لامة تروم حفظ كيانها وسلامتها  
 من التلاشي . واصرح ايضا بان جلالتم اذا اقدمتم على هذا التغيير الضروري الذي لا يخالف  
 شيئاً من مبادئ ديانتنا المقدسة خدمتم المسلمين اعظم خدمة مشروعة وتعتنهم نعماً لم يحظر  
 قط بيال احد من اسلافكم العظام . وهذا العمل العظيم يستغرق عدة مسائل ولم يبق لي في  
 هذا العالم من القوة والوقت ما يمكنني من التأمل فيها . ولكنكم قادرون يا مولاي اذا شئتم ان  
 تنتفعوا بخدمة ذلك الرجل العظيم الذي اتيح لي ان اكون صديقه ومشير . واني اسأل الله ان  
 يطيل بقاءه لجلالتم لانه اعرف من غيره بوسائط خلاص السلطنة . ولم اشر قط بشي على  
 جلالتم الا بعد الوقوف على رأيد فيه واستحسانه له . فكنوه من ثقتكم التامة لان ثقة  
 السلطان تشدد ساعد الوزير . والثمس من جلالتم فوق كل شيء ان تؤيدوا هذا الخادم الامين  
 الذي لا غنى لكم عن حذقه ودكائه وفطنته ودرائته ولا تدعوا جهل زملائه يشط عزمته  
 ويضعف همته . ولا شيء يوهن عزمه اكثر من اضطراره الى العمل مع من لا يستطيعون  
 ان يدركوا افكاره ويفهموا مقاصده

اما من جهة علاقتنا الخارجية فلما كنا غير قادرين على محاربة اعدائنا وجب علينا ان  
 نستعين بمصادقة الاجانب ومحالفتهم . ولاجل حماية حقوقنا يترتب علينا ان نبدي من القوة  
 والحذق والشجاعة اكثر جداً مما ابدي اسلافنا في اخضاع الشعوب وتدويج الممالك واذا اجنتم  
 عن حلفائنا الاجانب وجدتم انكثروا على الدوام في مقدمتهم . وسياستها وصدقتها متبناة

كقوانينها . وقد خدمتنا في الماضي خدمات جيلة ولا يسعنا الاستغناء عن مساعدتها لنا في المستقبل . ومهما تقلبت الاحوال فالتعب الانكليزي الذي هو اعجب شعوب العالم واجدرهم بالثقة والاعتماد يكون اول حلفائنا وآخرهم ولو خيرت لاخترت خسارة الباب العالي عدة مقاطعات على خسارتو صداقة انكلترا

اما فرنسا فخليفة لنا يجب ان نعاملها دائماً بما نستطيعه من التهمة والاحترام ليس لانها قادرة ان تمدنا باعظم مساعدة فقط بل لانها تستطيع ايضاً ان توقع بنا اكبر ضرر . ولها شغف بالعظمة ولو رأيتها في اعدائنا . فاحسن وسيلة لحفظ صداقة هذا الشعب الكريم ان نجارية على افكاره وتصوراته ونبدي ما يوافقه من هذا القبيل . واذا عرضت فرنسا عنا يوماً ما وجاهرت بمعادتنا كانت من الاسباب التهمة لخربنا

اما النمسا فقد شغلنا مصالحها الاوربية عن المداخلة في المسألة الشرقية . وارتكبت غلظة كبيرة في حرب القرم وسترى في المستقبل الخطر الذي ينقض عليها من الشمال ويكون شديداً عليها كما يكون علينا نحن ايضاً . وسيتبقى حكومة فيناً حليفة طبيعية للباب العالي ما دامت ناجحة في سياستها منهج الحكمة والسداد ولا يمكن صد تيار الشر العظيم الذي انهار على الشرق منذ اكثر من قرن الا بمعونة النمسا ومضاهرة حلفائنا في الشرق

اما بروسيا فقد ظلت الى هذا الوقت غير مكترثة للمسألة الشرقية ومن الممكن ان سياستها تقضي عليها بتفخيختنا في سبيل مشروع الاتحاد الالمانى وبعد حصول هذا الاتحاد لا تلبث المانيا ان ترى لها في المسألة الشرقية ما لبقية الدول من المصالح وعسى ان لا تكون نتيجة سياستها في التمسك الزام اعدائنا امتلاك بلادنا الاوربية

اما روسيا فهي عدوة دولتنا الطبيعية وامتدادها في الشرق من جملة مبادئها الاساسية . ولو كنت وزيراً روسياً لما تركت شيئاً يحول دون تدوير الاستانة . فلا نجيب اذاً ولا نشكو من جفائها واعدائها وهي تعاملنا الآن كما كنا نحن سابقاً نعامل اليونان . ومن اسخف الاموران نعمتني في صد غاراتها عنا على مجرد حقوقنا اذاً نحتاج الى القوة ولكن ليس القوة التي استخذمنها قديماً وانقضى امرها ولا فائدة من محاولة احيائها بل القوة الجديدة التي تلح بها شعوب اوربا بواسطة العلوم والمبادئ الحديثة . ان روسيا لم تعد كما كانت في عيد بطرس الاكبر بل خطت خطوات مهمة في سبيل التقدم وعم قليل تزداد قوتها عشرة اضعاف بواسطة سككها الحديدية . وما يخيفني على الخصوص ان اكثر اطم اوروبا راض من الآن بما تقصده روسيا من الاعتداء على غيرها

وما بدعشتي ايضاً وبخيتني عدم اهتمام انكثرا باحوال اواسط اسيا ويزيد خوني ودعشتي  
 حينما ارى التغيير العظيم الذي حدث في موقف روسيا على اثر زوال انقلاب من ولايات القوقاس .  
 وعندي ان روسيا ستصوب غاراتها في المستقبل على املاكنا في اسيا الصغرى فمن الضروري ان  
 لا نكف عن التأهب والاستعداد لاننا لا نسري هل يكون حلاً وانما استعدادين على الدوام  
 لبادرة ابي مساعدتنا عند ما تنس الحاجة . فقد يحدث شيء في اوربا يقل ايديهم ويشغلهم عنا  
 وعند ما اراجع في ذهني الفلطات التي تركبها حكومات اوربا لا ارى اعظم من غلظتها  
 في مساحنا لاعظم دولة مستبدة في العالم ان ثألف من مئة مليون وتسلخ بكل معدات التمدن  
 وتفتح فاهها لابتلاع الممالك والبلدان . وهي تفتى اسيا باجيوش وتزعزع اركان اوربا بالنهضة  
 السلافية وتقدم على التيج والتدويج بجمجة محبتها للسلام وعدم رغبتها في تغيير الحالة الحاضرة .  
 ولقد حدا بي ذكر روسيا الى الكلام على ايران ولولا الايجاز . فحكومة هذه البلاد كانت  
 على الدوام منقادة بعامل التعصب الشيعي الى مخالفة اعدائنا . وقد سوات لها نسها في حرب  
 القرم ان تظاهر روسيا علينا ولكن رباح السياسة الشرقية هبت على خلاف مشتها وحالت  
 دون تحقيق مناها . وعرش الشاه معتمد في الوقت الحاضر على الوزارة الروسية علي ان حكومته  
 بالغة غاية الضعف والجهل والفقر فلا تستطيع مبادأتنا بالشر والعداء ما دمنا مطلقي الايدي  
 من المشاكل والمراقيل . ولكن متى نشبت الحرب بيننا وبين روسيا صعدت اليها ايران في  
 مقدمة اعدائنا بالرغم عن شدة حذرنا منها مدفوعة بعامل استقلالها السياسي وغيرتها العمياء  
 لكن الباب العالي لحسن حظو يأمن جانبها بما لديها من القوة المادية وهو قادر ايضاً ان  
 يستعين بالوسائل الادبية على ارهاب حكومة زعزع اركانها الاستبداد وكثرة الطامحين اليها  
 وهي مخاطة باهل السنة من كل جانب

ولا يجوز ان ننسى اليونان فهي لا شأن لها في ذاتها ولكنها آله في يد دولة معادية لنا  
 نتخذها لتعكير مائنا وتكدير صفائنا . وكان الشعراء الاربيين انشأوا هذه المملكة في عالم  
 الخيال لينشروا بها امة طواها الدهر منذ اكثر من التي ستة . حاولوا احياء بلاد هوميرس  
 وارسطوطاليس فانشأوا مستقر الدسائس والنزوى وقد بقي اليونان زماناً طويلاً مستعزين بما  
 كان لهم من المجد السالف ولو كانوا قد ابتعدوا عنه منذ قرون كثيرة ساد فيها الفساد والجهل  
 ويحاولون اعادة ممالكهم الشرقية لكن اعتزازهم بانفسهم وانفصالهم عن غيرهم يكرهات الامم  
 الشرقية بهم . وقد يسهل على الباب العالي ان يجد بعض الخدام الاذكياء بين اليونان ولكن  
 روح الجنس اليوناني سيبقى على الدوام مضاداً لمصلحتنا . فمصلحتنا السياسية تقضي علينا بيزل

الجهد في ابعاد اليونان عن باقي المسيحيين الذين في سلطنتنا وفصل الباغار عن سلطة الكنيسة اليونانية ومنع اتصالهم بالكنيسة الروسية او البابوية .

وعلى الباب العالي ان يمنع كل دمية يراد بها ضم الارمن الى الكنيسة الارثوذكسية .  
ولكن سمينا خير المسيحيين مقصوداً على محاولة تحريرهم من سلطة الاكليرس . وافضل سياسة يجب علينا اتباعها هي ان تجعل الحكومة فوق كل مداخلة في المسائل الدينية

اما من جهة امورنا الداخلية فعلياً ان نوجه اهتمامنا الى ادراك غرض واحد وهو مزج شعوبنا بعضهم ببعض ولا سبيل الى وحدة سلطنتنا بغير هذه الوسطة . لا ينبغي ان تكون هذه السلطنة العظيمة يونانية او سلافية ولا لهذه الطائفة او ذلك الجنس لانها انما تقوم بالتجاد شعوبها وامتزاج اجناسهم

والبقاء مضمون لدولة مثل المانيا او لامة مثل فرنسا عددها ٤٠ مليون نفس او لبلاد مثل انكلترا عززتها الطبيعة بالمنع الحصون اما الجبل الاسود والسرب وارمينية وغيرها من الولايات التي ليس لها شيء من الامتياز الخاص او النفع العام فاذا وجدت كانت عبارة عن حكومات خيالية او بقايا دول من سالف الامد وقد اخني عليها الذي اخني على لبد وغادرها فرانس لكل فاتح جديد او حبر عترة في تقدم الانسان وخطراً على السلم العام

وأصوب رأي يعول عليه الآن في تنظيم الحكومات الحاضرة هو جمع القوة بواسطة المزج والتأليف بين العناصر المختلفة . فافضل وسيلة لدرء الطراب عن حكومتنا تجديد نظامها على اساس متين يجمع العناصر المتفرقة بلا تمييز في الجنس او المذهب . ويربطها كلها برباط المساواة . ومعلوم ان هذا المبدأ يقضي بترشيح رعايانا المسيحيين للوظائف العمومية وفي هذا ما فيه من الصعوبة لانهم اذا فتح لهم هذا الباب الذي كان مغلقاً في وجوههم اندفعوا منه ببلد الغم والحمية وحاولوا سبق الذين تقدمهم من قبل . وهذا الضموج ابداه الارمن على الخصوص فمن الحكمة ان تداركها بما يجعل الباب مفتوحاً فقط للرجال الامناء الذين يقبلون مبدأ وحدة السلطنة ويعملون بموجبه

ان ديانة رعايانا المسيحيين مؤسسة في الغالب على مبدئين احدهما ادبي والاخر سياسي . وعلى حكومتنا ان تفض النظر عن مبداهم الادبي وتجاهله على الاطلاق وتوجه عنايتها الى مراقبة مبداهم السياسي بعين الحذر والانتباه فلا نبال بكينية عبادة احد رجال حكومتنا لله سواء عبده حسب ناموس موسى او بموجب شريعة عيسى اذ ليس في ذلك ما يقضي بجرمانتنا الانتفاع بخدمته . ولكننا اذا وجدناه لا يسعى لوحدة السلطنة وعلمنا انه يعطل نفسه بانشاء

امبراطورية بيزنطية ثانية او يخدم مصلحة دولة اجنبية وجب علينا عزله حالاً لانه خائن للدولة والامة

ووحدة الحكومة والبلاد قائمة على اساس المساواة . والمساواة هي القاعدة الوحيدة التي اطلب من كل موظف عمومي ان يجري عليها . وعلى جلالتم ان تسعوا اولاً في توطيد اركان العدل حتى تظهروا عظم اهمية هذه القاعدة المنبذة . ولا اجهل ان هذا السعي وعث الملاك صعب المراس ولكن لا بد منه ولا غنى عنه . وبعد ما تضمنون لرعاياتنا سلامة حياتهم واموالهم يجب عليكم ان تهتموا بانشاء السكك . وحينما يصير عندنا من سكك الحديد قدر ما عند الدول الاوربية تكون دولتنا اول دولة في العالم . وحننا مسألة لا يجوز الاغضاء عنها لانها شديدة الاهمية اعني مسألة المعارف العمومية التي هي اساس كل ترقى عمومي وبغيرها لا يرجى الحصول على عظمة اديبة او مادية . وهي تشمل الجيش والبحرية والادارة والافلا قوة لنا ولا استقلال ولا حكومة ولا مستقبل . ان التعليم في بلادنا لم يزل منحطاً لاسباب مختلفة مع ان روح ديانتنا يامر بتقوية وتعمير ومدارسنا الكثيرة التي استقرت نفقات باهظة اعدت لنا مع قلة فائدتها اهم مبادئ التعليم العمومي ولم اتمكن من اقتناذ هذا المشروع لاني كنت على الدوام مشغولاً عنه بالمشاكل الخارجية . فانركه خلفائي واؤكد لهم انه اعظم المشروعات اهمية وفائدة . وليس يجازر علي ان بعض المسلمين سيكفرونني ويمدونني عدو الدين ولكنني اغفر عنهم لعلمي انهم لا يفهمون كلامي ولا يدركون افكاري . وسياتي يوم يتحققون فيه اني انا المصلح الكافر كنت اصدق عقيدة واحج اسلاماً من كل اولئك الاغرار الذين صبوا علي جام اللعنات وصوبوا الي سهام الاهانات . سيعلمون ولكن بعد فوات الوقت اني جاهدت اكثر من كل شهيد آخر في سبيل حكومتهم وديانتهم اللتين عرضوهما للسقوط والانحطاط . ان الناموس الاول لكل نظام الهيا كان او انسانيًا هو ناموس الحفظ الذاتي فلم يكن حفظ الاسلام غرضي الوحيد من كل اصلاح ابتغيته . ولم اذرع الى ذلك بالنصب الاعمى والتحزب الباطل بل بالطرق التي وضعها اله الاسلام امامنا كما وضعها امام كل امة اخرى في العالم

ان يدي الضعيفة المضطربة لم تعد قادرة على الكتابة فانف عند هذا الحد والتس في الختام من جلالتم ان توجهوا التفاتكم الى الكلمات الاخيرة التي فاد بها هذا الخادم المنكود الحفظ الذي كان بالرغم عن كل ضعف بشري محبباً لبني جنسه وباذلاً انصى جيدو في ما يعود عليهم بالنفع والآن يفارق العالم غير آسف عليه ويموت مسلماً عانياً لاحكام القدر وسبب انفسه للديان العظيم الرحمن الرحيم